الدكتور جواد علي .. ذاكرة لتاريخ العرب

حينما يتذاكر الناس في تاريخ العرب وفي طبيعة ما كانوا عليه قبل الإسلام ، فإن المؤرخ الأستاذ الدكتور جواد علي ، رحمه اللّه ، أول ما يتبادر إلى أذهانهم. ويكفيه فخرا انه ألف كتابيه الشهيرين (تاريخ العرب قبل الإسلام) بثمانية مجلدات و (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) بعشرة مجلدات.

د. عزيز طه

ولد الأستاذ الدكتور جواد علي في الكاظمية ببغداد سنة ١٩٠٧ ودرس في الاعظمية حيث كلية الإمام الأعظم أبي حنيفة وبعد ذلك أكمل دراسته في دار المعلمين العالية (كلية التربية) وبعد تخرجه فيها سنة ١٩٣١ عين مدرسا في إحدى المدارس الثانوية وسرعان ما رشح ليكون ضمن بعثة علمية إلى ألمانيا

وقد حصل على الدكتوراه من جامعة هامبورغ سنة ١٩٣٩ وذلك عن رسالته الموسومة (المهدي وسفراؤه الأربعة) بالالمانية . عاد إلى العراق وصادفت عودته قيام ثورة مايس ١٩٤١ ونشوب الحرب العراقية -البريطانية فانضم إلى الثورة وبعد فشلها اعتقل في معتقل الفاو ثم أطلق سراحه وأعيد إلى الوظيفة في وزارة المعارف واختير ليكون أمينا لسر لجنة التأليف والترجمة والنشر التي قدر لها أن تكون نواة للمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٧ وفي ١٩٥٦ أصبح عضوا عاملا في المجمع واختير عضوا مراسلا ومؤازرا في مجامع اخرى عربية وعالمية . عمل الدكتور جواد علي مدرسا وأستاذا مساعدا ثم أستاذا في قسم التاريخ بكلية التربية -جامعة بغداد منذ الخمسينيات من القرن الماضي وفي العام الدراسي ١٩٥٧ -١٩٥٨ عمل أستاذا زائرا في جامعة هارفارد الامريكية وقد تقاعد فمنحته جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرس) نشر الدكتور جواد علي قرابة (٥٠) دراسة في مجلة المجمع العلمي العراقي كما كتب في مجلات أخرى منها (المعلم الجديد) وحصل في حياته على تكريمات وأوسمة منها وسام المعارف اللبناني ووسام المؤرخ العربي وحضر ندوات ومؤتمرات عديدة منها مؤتمرات المستشرقين التي كانت تعقد في ألمانيا. من مؤلفاته المنشورة :

١, التاريخ العام (بغداد ١٩٢٧)

٢, أصنام العرب (بغداد ١٩٦٧)

٣, تاريخ العرب قبل الإسلام (ثمانية مجلدات) طبعها المجمع العلمي العراقي بين سنتي ١٩٥٦ -١٩٦٠ .

٤, المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة مجلدات) طبعت في بيروت بين سنتي ١٩٦٨ - ١٩٧٧ .

٥, تاريخ الصلاة في الإسلام (بغداد ١٩٦٨)

٦, تاريخ العرب في الإسلام (بيروت ١٩٦٩)

كما أن له كتبا غير منشورة منها كتاباه (معجم ألفاظ المسند) و(المفصل في تاريخ العرب في الإسلام) وقد نشر مع الدكتور احمد سوسة والأستاذ بهجت الأثري خارطة الإدريسي المعروفة ب (صورة الأرض) وطبعت سنة ١٩٥١ . وله بحث موسع نشر متسلسلا في مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٥٠ -١٩٥٤) حول موارد تاريخ الطبري .

كان الدكتور جواد علي مؤرخا رانكويا (نسبة إلى المؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكة) الذي يقول إن وظيفة المؤرخ أن يعيد تشكيل الحدث التاريخي كما وقع بالضبط . وبشأن منهجه هذا قال إن ثمة مشاكل تعترض المؤرخ منها مشكلة الرجوع إلى المصادر الحقيقية ومشكلة المؤلفات القديمة باللغات المختلفة ومشكلة تشتت المصادر وتبعثرها. ويعيب الدكتور جواد علي على المؤرخين أخذهم بالعموميات بدلا من اعتماد المنهج العلمي ويضيف إن على المؤرخ أن يدرس التاريخ وفقا للظروف والحوادث التي وقعت وليس كما هو الحاضر ويحذر المؤرخين من تدخل العواطف وتحكم المذهبية واصطباغ التاريخ بصبغة عقائدية ويقول ((يقتضي على المؤرخ ليكون تاريخه علميا منزها تجنيب نفسه المذهبية المتزمتة وعليه نقد الروايات نقدا علميا محايدا ...)). ويضيف ((ثم يقوم بربط الأخبار بعضها ببعض، وشد اجزائها شدا محكما بأسلوب يتناول كل الوجوه واعتبار التاريخ تاريخ بشر وهو حكم وسياسة والسياسة سياسة في كل وقت ومكان ولن يختلف فيها إنسان عن إنسان)).

ويرى الدكتور جواد علي، أن العرب يمتلكون تاريخا ثرا وهم في غنى عن الإضافة إلى تاريخهم وتحميله ما ليس منه. ويدين استخدام الدولة التاريخ أداة بيدها ويقول إن هذا مرض مزمن في البشرية مما حمل الناس على الشك في صحة التاريخ.

واعتباره مجرد كذب وتلفيق ويضيف ((ما زال التلفيق والتنميق جاريين في التاريخ، ولاسيما في السياسات المذهبية وفي الأمور الشخصية وفي الحروب وفي الجدل بأنواعه، غير أن بوسع المؤرخ في الوقت الحاضر الكشف عن الواقع بفضل تعدد المصادر والمقارنة بينها واستخلاص الحقائق)) .

وفيما يتعلق بالدعوات حول إعادة كتابة التاريخ قال الدكتور جواد علي إن تلك الدعوات لم تنبع من فلسفة أصيلة مدروسة وإنما من ميول ومحاكاة ومحاباة ونابعة من توجيه البيئة والعصر وإخضاع التاريخ لمنطق الرأي السائد في عصر المؤرخ. وبشأن عوامل تفسير التاريخ التي يجب على المؤرخ أن يتسلح بها يقول الدكتور جواد علي إنها :

١, التاريخ يستمد وحيه من واقع الظروف التي صنع فيها وذلك بعد تحليل وإعمال فكر واحاطة بالروايات وبالوثائق الواردة عن الحادث .

٢, تدوين التاريخ وفقا للاجتهاد الذي يتوصل إليه وجدان المؤرخ عنه .

٣, عدم الرضوخ لمدرسة معينة من المدارس التي تفسر التاريخ وفقا لديانتها وعقيدتها في تفسير التاريخ ،لأن التأريخ لرأي معين معناه أننا نزيف ونحور التاريخ ونصوغه وفقا لعقيدتنا الضيقة ،فهنا إخضاع لحكم جامد يتنافى مع ضرورات المنهج العلمي في تفسير التاريخ .

٤, على المؤرخ أن يشخص كل جوانب التاريخ ،فلا يقتصر على التمجيد والمديح ،وفي الوقت نفسه لا يحاول تسقط العثرات ومواطن الضعف .

٥, أن يكون المؤرخ وصافا عالما عادلا أي أن ينظر إلى منشأ الروايات واتجاه رواتها والزمن الذي عاش فيه صاحب الرواية وناقلها .

٦, وإزاء هذه المواصفات ،علينا ، يضيف الدكتور جواد علي ،أن نحذر من النظرة القسرية إلى تاريخنا، ويجب التبصر فيما يكتب في كل بيئة معارضة وعلى المؤرخ عدم الاقتصار على الجوانب السياسية وشمول كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بالاهتمام .

وقبل وفاته سنة ١٩٨٧ كانت وصيته الأخيرة لمؤرخ اليوم هي الحديث عن كل جوانب الحياة ومختلف الطبقات: الخاصة والسواد.

اطلق سراحه من السجن فانضم الى اول مجمع علمي عراقي

الدكتور جواد علي في الجيل الاول من المؤرخين في العراق فقد ارخ بوعي المؤرخ العالمي وكتب تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده وبروح النزاهة والموضوعية وهما اداة المؤرخ الحيادية فخرج التاريخ من بين يديه بما يشبه الوثيقة فلا هي تتجه الى اليمين ولا الى اليسار انما قدم مادة تاريخية على منهج الوصف والتحليل وهو منهجه المسند بموارد ومصادر ومراجع التاريخ الرئيسية ثم المسند على رؤيته المفتوحة على مذاهب التاريخ كلها والمنسجمة مع عدالة المؤرخ (العلم والصدقية) ومع شرفيته (عدم زوغان لجهة ما) وموسوعته (تاريخ العرب قبل الاسلام - عشرة اجزاء) برهان استدلالي على اجتهاده في فصول التاريخ وكان شديدا على نفسه صارما في التعامل مع مصادره وموارده واخلاقه الشخصية هذه انعكست على كتاباته التاريخية فلم يخضع لاي مصدر الا بعد قراءته وتمحيصه وبعد صبر واناه...

ان المؤرخ جواد علي الف كتبه بروح مصالية فهو رفض ان يكون قاضيا يصدر احكامه على التاريخ الذي مضى وهو ملك الاجيال ورفض المؤرخ الذي يصدر احكاما قاطعة لان الاحكام والاراء الشخصية او القاطعة تنتهك حرمة الوثيقة .

ولد في الكاظمية سنة ١٩٠٧ وتوفي في بغداد سنة ١٩٨٧ وتخرج من دار المعلمين العالية ومنذ بداياته وكان التاريخ هو هاجسه الابداعي فاصدر في عام ١٩٢٧ كتابه الاول (التاريخ العام) وشجعه الكتاب على تعميق دراسة التاريخ فذهب في بعثة الى المانيا سنة ١٩٣٣ وانتمى الى القسم الشرقي للدراسات العربية والاسلامية في الجامعة الالمانية ودرس حضارة اليمن وخط المسند في جامعة اخرى وكان نص (ابرهة) حاكم اليمن الحبشي هو النص الذي امتحن به شفويا للحصول على الدكتوراه وكان كتابه المهدي وسفراؤه الاربعة النص المكتوب لنيل شهادة الدكتوراه فحصل على شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز في الامتحانين عام ١٩٣٨ .. وفي المانيا ابدى الدكتور جواد علي نشاطا ثقافيا واسعا فكتب في صحفها يفند نظريات الالمان في تفسير التاريخ وخلاصة كتاباته ان الالمان يفسرون التاريخ خطا . اذ هم يعتبرون ان التاريخ القديم او الحضارة البشرية يجب ان تبتدىء من الاغريق ثم الرومان فالشعوب الآرية . اما حضارات الشرق الادنى فهي من فضلات الحضارات الارية وان الجنس السامي مقلد ويحاكي فقط وليست له قابليات على الابداع . وقال لهم: لاوجاء بادلة اعجبت القارىء الالماني وتقديرا له منحته الجمعية الصحفية الاجنبية عضوية فاعلة وكان يتردد على جمعية المؤرخين الالمان وتبادل معهم حوار الحضارات ولاسيما مع اولئك اهتموا بحضارة العرب ومن بينهم (ميتوخ) و(راتجن) و (شتوتمن) حيث جادلهم في العرقية النازية القائمة على الدم والارض ونشرت مجادلاته هذه في الصحف الالمانية .

وقرأ له الزعيم الالماني هتلر معجبا ومنحه عضوية فخرية في حزبه ودعاه غير مرة لحضور مؤتمرات الحزب النازي .. جواد علي ينشر يومياته هذه المرة في بغداد بجريدة الزمان لتوفيق سمعاني ولها جمهور وصدى رائع .

وعندما عاد الى الوطن انخرط في دورة الضباط الاحتياط والزمن هو زمن حركة مايس وتطوع للحرب وارسل الى جبهة القرنة وانتهت الحرب العراقية البريطانية وجواد علي في سجن الفاو واطلق بواسطة جميل المدفعي وعاد يفتش عن دوره من جديد في الحياة الثقافية فعين عام ١٩٤٥ سكرتيرا في لجنة التاليف والنشر بوزارة المعارف وهذه تحولت الى اول مجمع علمي عراقي يصبح فيه عضوا وسكرتيرا وله انجز في سكرتاريته كتبا وخططا في تطوير الفكر العراقي ثم نال العديد من العضويات في مجامع علمية عربية وشرق اوسطية وعالمية لان علماء المجامع العربية وجدوا فيه طاقة تاريخية وعلما في التاريخ ووجه مشرق في الطليعة الفكرية. ومن كل تاريخه الشخصي وتجربته في المؤتمرات التاريخية العلمية التي اشترك فيها باحثا او رئيس لجنة ومن تراكم احساسه الانساني باهمية التاريخ في صنع الانسان اخرج لنا كتب التاريخ فعد عن موسوعته الشهيرة (تاريخ العرب قبل الاسلام) الف(تاريخ العرب في الاسلام) بعدة اجزاء وطبع منه جزء واحد ثم الف كتاب (تاريخ الصلاة) اما كتبه الخطية فهي تضاهي مطبوعاته ومنها (معجم الفاظ المسند) وهو يرشد الباحث الى مخبوء من الحضارة القديمة وهو في اهميته يشبه كتاب (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي.. ونشر في مجلة المجمع العلمي العراقي دراسات عن موارد الطبري وعن موضوعات في التاريخ جديدة ومستحدثة واهم شيء في دراساته ان جواد علي يدل الباحث على اهم منبع لا في الفكر التاريخي عن القدامى وباسلوب تتحكم فيه القدرة على التحليل والموازنة والمقارنة .. كان لايلتفت الى الشهرة ولايتلذذ بسماعها ولذة واحدة تستبد فيه وهي الانصات الى صوت ضميره .. وكان عقله يجمع الى فطريته الانضباطية حاسية استدلالية تنقي المعلومات الواردة اليه بما يلائم مجموعه الكلي الانساني . وقد عاش المؤرخ فيه كما عاش زهاد المدن والصحاري ..

مات ومازالت كتبه تذكرنا بان التاريخ لايكتب نزيها وصحيحا الا خارج المؤسسة الرسمية او خارج ارهاب الدولة . اية دولة فكتب التاريخ وهو ممتلىء بفرحة الاجيال .

من كتاب جواد علي لحميد المطبعي

الخمسينيات .. فترة ذهبية في تاريخ العراق المعاصر

اريك ديفس

تقديم وترجمة حسين كركوش

شهدت الحياة الثقافية في العراق، منذ البواكير الأولى من عمر دولته الحديثة، نشاطا متزايدا على جميع الأصعدة. وكان للمؤرخين العراقيين، مثلما لبقية العاملين في الحقول المعرفية الأخرى، حصتهم في هذا النشاط. إذ برزت، في هذا الميدان، أي الكتابة التاريخية، أسماء عراقية مرموقة: عبد العزيز الدوري في الحضارة العباسية، جواد علي في تاريخ العرب ما قبل الإسلام، عباس العزاوي في تاريخ العشائر، علي الوردي في تتبع سوسيولوجيا المجتمع العراقي، عبد الرزاق الحسني في تاريخ العراق السياسي الحديث، محمد رضا الشبيبي في انشغالاته الموسوعية، طه باقر في تاريخ العراق القديم، كمال مظهر، فيصل السامر، صالح أحمد العلي، محمد أمين زكي وآخرون كثيرون لا يقلون شأنا.

وفي السنوات الأخيرة أزداد هذا النشاط، وظهرت أجيال جديدة من المهتمين بالكتابة التاريخية، بالترافق مع زيادة الإقبال على دراسة العلوم الاجتماعية في الجامعات العراقية. وكان من هذا النشاط أن ظهر العديد من الكتب التي ركز معدوها على كتابة تاريخ العراق السياسي المعاصر. وبينما اتسمت "بعض" هذه المساهمات برصانة أكاديمية جعلتها تصبح مصادرا يعتد بها، فأن الغالبية العظمى منها لم تحصد ثقة القارئ العراقي، بسبب خلوها من الموضوعية والمصداقية. لكن الأنصاف يقتضي منا التأكيد على أن الخلل لا يتعلق بالعامل الشخصي، أي عدم أهلية الباحث العراقي نفسه، أو عدم أهلية المؤسسات الجامعية العراقية لتخريج باحثين جيدين، بقدر تعلقه بعوامل خارجة عن إرادة الباحث ورغبته وأمنياته. وإذا تجاوزنا النواحي التقنية، كنقص المصادر وصعوبة الحصول عليها، والعوائق أمام التفرغ الكامل للبحث، رغم أهمية هذه الأمور، فأننا نجد أنفسنا أمام معضلات كبرى، ليس للباحث العراقي قدرة على إلغائها أو حتى تذليلها.

أهم هذه المعوقات، بل في المقدمة منها، غياب الحريات السياسية، والرقابة الحكومية الصارمة، وبالتالي غياب حرية البحث العلمي. ويكفي لتأكيد صواب هذه الحقيقة، أن نقارن بين عدد وكفاءة المؤرخين العراقيين الذين أنجبهم العراق في الفترة التي سبقت عام ١٩٦٨، وزملائهم من جيل الشباب خلال الفترة التي بدأت بحكم صدام حسين. فبينما شهدت الفترة الأولى ظهور كفاءات أكاديمية مرموقة في مجال الكتابة التاريخية، بفضل أجواء الحريات السائدة وقتذاك، فأن الفترة التي حكم صدام خلالها لم تنتج ما يوازي ما قدمته العقود السابقة. ومرة ثانية نقول، أن السبب لا يتعلق بجيل الشباب من المؤرخين، إنما في أجواء القمع السياسي وغياب الحريات وتدخل الدولة في كل مفصل من مفاصل الحياة، عموما، والحياة الثقافية على وجه التخصيص.

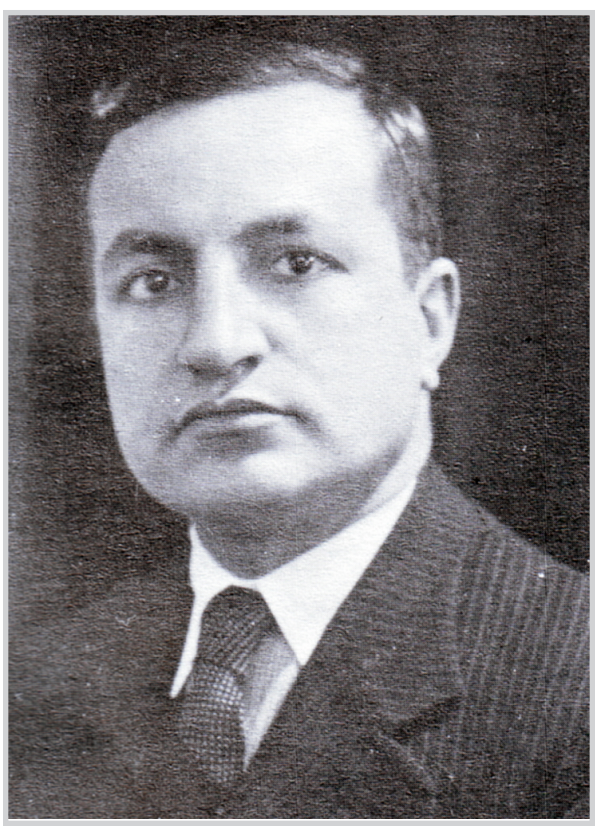

ولعل من المفيد، هنا، أن نستشهد بما قاله المؤرخ العراقي كمال مظهر، وهو يتحدث عن الظروف الاستثنائية، فيما يخص غياب حرية البحث، خلال الفترة التي حكم خلالها صدام حسين، بأنه: "ليس لك قول ما تشاء، وكتابة ما تشاء، بل ليس لك التفكير بما تشاء." وإذا لم يكن بمقدور المؤرخ حتى "أن يفكر بما يشاء"، فعلينا أن نقدر الخسارة التي تلحق ب"الحقائق وبالحياد العلمي".

وفي واقع الحال، فأن صعوبة أن يفكر المؤرخ أو الباحث العراقي عموما، بما يشاء، ليست سببها غياب الحريات السياسية فقط، وإنما سببها، أيضا، "الرقابة الذاتية" التي يفرضها، أو يضطر أن يفرضها على نفسه الباحث العراقي، أي باحث. فهناك الكثير من المواضيع "الحساسة" التي ظل الباحث العراقي ينأى بنفسه عن الخوض في غمارها ومناقشتها، تعففا وترفعا مرة، واستنكافا أخلاقيا وسياسيا مرة أخرى، ودفعا لإثارة المشاكل العامة، مرة ثالثة.وقد يكون لهذه المواقف ما يبررها. فربما ما تزال ماثلة في الذاكرة العراقية تلك الحادثة الثقافية التي أصبحت تسمى ب"قضية النصولي"، عندما أقدم أنيس النصولي، مدرس مادة التاريخ في الثانوية المركزية، على نشر كتاب (الدولة الأموية في الشام) في عام ١٩٢٦ ، وكيف أن ذاك الكتاب أثار غضب فئات من السكان، وفجر زوبعة طائفية شديدة، وتسبب في حدوث نزاع سياسي.

هنا، بالضبط، تكمن "أهمية" المؤلفات التي أنجزها وينجزها باحثون أجانب عن تاريخ العراق المعاصر. فهؤلاء يفكرون ويمحصون الأمور ويدونون أفكارهم والنتائج التي يتوصلون إليها، بدون أي حساسية عراقية "داخلية"، وبدون أن يتلبسهم الخوف من أي عواقب "سلبية" قد تحدثها كتاباتهم، لأنهم، أصلا، لا يعيشون داخل العراق.

ولعل الباحث الأجنبي الذي يرد أسمه للذهن، في هذا الشأن، هو حنا بطاطو، وكتابه الموسوعي عن تاريخ الطبقات الاجتماعية في العراق المعاصر. وربما يختلف مثقفون عراقيون كثيرون حول "قراءة" واستنتاجات بطاطو، لكننا لا نعتقد أنهم سيختلفون حول أهمية كتابه المذكور، أقله من الناحية الأكاديمية العلمية التوثيقية، وكيف أن هذا السفر الكبير أصبح من المصادر التاريخية التي لا بد منها في معرفة تاريخ العراق المعاصر.

اسرة تحرير ملحق عراقيون

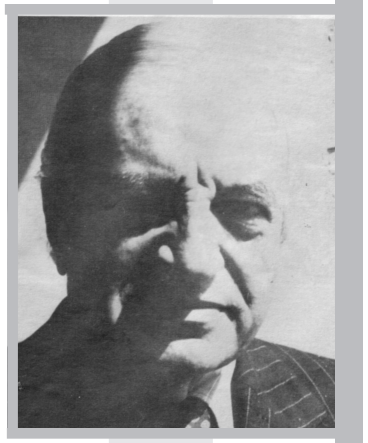

علي حسين

مازن لطيف

مصطفى محمد

عراقيون زمن التوهج

العدد (1309) السبت (30) اب 2008

No. (1039) Sat. (30) Aug 2008

جواد علي